

العملية الثقيفية مرتبطة ارتباطا وظيفيا كلما تحرك هذا المجتمع أو ذاك حركة ديناميكية مدفوعة بإرادة التغيير، سواء في مشروطيتها النفسية أو في مشروطيتها السوسيو-اقتصادية. إذن لا مجال لأن ننكر دور الشيء في خلق الثقافة، لكننا لا يمكن بحال من الأحوال أن نخضع له الفكرة بدليل أن أي مجتمع في المرحلة الإستاتيكية، لا يكون قد شيد بعد عالم أشيائه، بل كل ما هنالك أن عالم أفكاره قد شرع في التكوين و الصيرورة، وقد يحدث في مرحلة من مراحل تطور المجتمعات الإنسانية، أن يفقد مجتمع ما بحكم ظروف استثنائية، السيطرة على عالم أشيائه. وعلى الرغم من هذا النكوص يظل هذا المجتمع يحتفظ ببعض الشروط النفسية-الاجتماعية الممثلة في تلك القدرة الكامنة على تجديد عالم الأشياء مرة أخرى. ولعل المجتمع الألماني يجسد إلى حد كبير هذه الفكرة. فالحرب العالمية الثانية التي خاضها ضد الحلفاء لم تتمكن في النهاية من القضاء على قدرات الشعب الألماني رغم الهزيمة الساحقة التي مسته على أكثر من صعيد. فقد شهد العالم نهضة ألمانيا بعد فترة وجيزة على كل المستويات العلمية والمعرفية، دلت في جوهرها على تلك القدرة الخلاقة الكامنة في قوة الأفكار ودورها الحيوي في البعث الثقافي و الحضاري في هذا البلد الأوروبي على سبيل المثال لا الحصر. يقول مالك بن نبي في هذا الصدد وبشيء من التوضيح: "... فالفكرة من حيث كونها فكرة ليست مصدرا للثقافة، أعني عنصرا صالحا لتحديد سلوك ونمط معين من أنماط الحياة، فإن فاعليتها ذات علاقة وظيفية بطبيعة علاقتها بمجموع الشروط النفسية الزمنية التي ينطبع بها مستوى الحضارة في مجتمع وهو مستوى قد يتغير بطريقتين: فهو عندما يرتفع تعرض له في الطريق أفكار ليست من بين القوى الجوهرية التي نتجت عنها الحركة التاريخية، فإذا بهذه الأفكار تتقادم ثم تختفي، كما حدث في التاريخ لفكرة حجر الفلاسفة... وهو عندما يهبط تنقطع صلة بعض الأفكار بالوسط الاجتماعي ذاته، أعني أنها تنقطع عن منابع خلقية وعقلية صدرت عنها، فتكسب هذه الأفكار وجودا غير تاريخي يفقد معها الشيء نفسه أيضا مقدرته على إنتاج الأفكار كما حدث للتراث الخلدوني في عصر الضعف..."⁽¹¹⁾. ونستشف من هذه العلاقة الوظيفية بين الأفكار والأشياء في ظل بعض الشروط النفسية-الزمنية أنه، لولا وجود إهتمام اسمي يتمثله الفرد على أنه علاقة عضوية تربطه بعالم الأفكار وعالم الأشياء لفقد هذا الفرد أسباب حياته العضوية، أي أنه أصبح فاقدا لكل فعالية اجتماعية حقيقية باعتبار أن هذه الأخيرة تمثل الجانب العضوي من تلك العلاقة المتبادلة ما بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في مجتمع معين. لا ريب أن العلاقة المتبادلة والمعقدة بين الجسد والروح تجد حيويتها الطبيعية ضمن مجال حيوي معنوي ومادي. هذا الأخير يشكل المناخ الفيزيولوجي الذي يستمد الكائن الحي منه أسباب الحياة الضرورية لنموه البيوفيزيائي مثل التنفس و التغذية (التمثيل و الهضم) و الحركة وغيرها من العمليات البيو-كيميائية (المعقدة). فهي ليست في الواقع، إلا أشكالا متنوعة لعلاقتها العضوية بالمجال الحيوي. كما يمتد هذا التبادل العضوي ما بين الكائن الحي و البيئة الفيزيائية الكيميائية إمتدادا نوعيا إلى عالم آخر (فوق عضوي) (Superorganique) يدعى المجال الثقافي (L'espace culturel). هذا الأخير يستمد منه الفرد كل ما يحتاجه من أسباب الحياة، لكن هذه المرة لا

(11) بن نبي مالك، مشكلة الثقافة، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر/دار الفكر(بيروت/دمشق)، الطبعة الخامسة، 2000 ص 46-47.

لكيانه المادي بل لكيانه النفسي. : "فالثقافة في إطار هذا التصور [فوق عضوي] تصبح بمثابة التعبير الحسي عن علاقة هذا الفرد بهذا العالم، أي بالمجال الروحي (La noosphère) الذي ينمي فيه الفرد وجوده النفسي، فهي نتيجة هذا الاتصال بذلك المناخ." ²

إن حياة الفرد المادية و المعنوية تعني في جملتها، أن هذا الأخير لازال يولي هذه الصلة المتبادلة رعاية أسمى في مجالها الحيوي (الفيزيقي - الكيميائي) وفي مجالها الثقافي في أن واحد. لأن أي اختلال في أسس العلاقة المتبادلة بين الكائن و عالمه المادي و الروحي يعني الموت البطيء الحتمي. وفي هذا المعنى الوجودي، يقرر بن نبي أهمية هذه العلاقة العضوية فيقول: "إن الفرد إذا انقطعت صلته العضوية بالمجال الحيوي، دل هذا على موته الفيزيقي، وكذلك الأمر إذا فقد صلته تلك بالمجال الثقافي فإنه يموت [حتما] موتا ثقافيا وهذا يعني جوهريا، أن الثقافة على المستوى السوسولوجي، هي حياة المجتمع التي بدونها يفقد الكائن البشري أسباب الحياة المادية و المعنوية. ³ لهذا نجد أن مقاييسنا الذاتية ونقصد بها أحكام القيمة و المتمثلة في قولنا هذا جميل، وهذا قبيح أو هذا خير، وهذا شر... الخ و التي يتحدد سلوكنا بمقتضاها المعياري، تعبر - حسب بن نبي- في جوهرها عن مجال اللاشعور (الفطرة) الممتد في أعماق الفرد والذي يتكلم فينا بلغته الخاصة (المعقدة) بصورة أو بأخرى. إذا كان الأمر كذلك، فإننا سنفهم ضمنا أهمية الصلة الثقافية ودورها الحيوي في إضفاء قيمة ذاتية وموضوعية على الأفكار و على الأشياء، تسمح لنا في الوقت ذاته بتمييز وبمقارنة فعاليتها الاجتماعية ما بين الأفراد والجماعات على اختلاف انتماءاتهم الثقافية و الحضارية، على مستوى أفعالهم وردود أفعالهم المعقدة تجاه عالم الأفكار وعالم الأشخاص وعالم الأشياء.

إنه من السهولة بمكان ملاحظة بعض المواقف في خصوصيتها الثقافية كلما كان الموقف يتطلب حكما معياريا في المكان وفي الزمان. إن خصوصية ثقافتين، إحداهما أوروبية وأخرى إسلامية على سبيل المثال لا الحصر ليس ضربا من الصدق، بل حقيقة إنسانية يمكن التأكد من مقاييسها الذاتية عند كل من المتفرج المسلم و المتفرج الأوروبي، في مواقفها (تقبلها أو انفعالها) المختلفة إزاء المشهد الواحد، سواء أكان هذا المشهد واقعي أو مصطنع. فقد يحدث أن يثير مشهد من المشاهد ضحكا أو سخرية عند المتفرج المسلم في نفس اللحظة التي يكون فيها قد أثار بكاء أو تعاطفا عند المتفرج الأوروبي، إن المتفرج الأوروبي كما قال مالك بن نبي - عادة ما تغلب على مواقفه وانفعالاته الحساسة الجمالية هذه التي اكتسبها منذ عصر النهضة على حساب الحساسية "الأخلاقية"، وليس هذا ناشئ عن نقص في الحساسية بينهما، بل أن السبب يعود إلى أن ذاتيتهما واستعداداتهما للتقبل والانفعال مختلفتان جذريا. إلى جانب هذا الحوار الحيوي من خلال تلك العلاقة المتبادلة ما بين الفرد وبيئته المادية والروحية، هناك حوار صامت مع الطبيعة بما تزخر به من مناظر وإيقاعات جمالية يتمثلها الفرد بصفة لاشعورية في صورة عناصر تربوية ثقافية، يستلهم منها الشاعر قصيدة و الأديب رواية أو قصة و الرسام لوحة فنية و الباحث صيغ فنية وتقنية، تعبر في جملتها وتفصيلها عن مقومات ثقافية وحضارية معينة.

² بن نبي مالك، نفس المصدر السابق، ص 50.

³ - بن نبي مالك، المصدر نفسه، ص 49-50. بن نبي مالك، مشكلة الثقافة، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر/دار الفكر(بيروت/دمشق)، الطبعة الخامسة، 2000 ص 46-47.

وبلغة شاعرية يقول بن نبي في هذا المعنى: "...فإن لدينا حورا آخر مع الطبيعة التي تنقل إلينا رسالتها، مكتوبة بأبجدية ملغزة أيضا، هي: أبجدية الألوان و الأصوات و الروائح و الحركات والظلال والأضواء والأشكال والصور، هذه العناصر الطبيعية ذاتها تتجمع في نفسيتنا ثم تذوب وتهضم في صورة عناصر ثقافية، تندمج في وجودنا الأخلاقي وفي بنائنا الأساس .. فليس من قبيل الصدفة أن تغنى الشعراء وخذ الرسامون شروق الشمس وغروبها، فرسموا خفة حركة وجمال صورة، كما نشدوا ذكاء رائحة ورقة لون." ⁴ ثم يقرر بقوله: "فكل هذا إذا ما ذاب في كيانتنا وأنسكب في شعورنا، تجلي في عقلنا في صورة أفكار عملية، ثم تحول إلى صيغ فنية، إلى تنوع في الأزياء وفي الصناعة، وهذا كله لب الثقافة ودمها وروحها." ⁵ وتبقى عملية استحداث تركيب للعناصر الثقافية تتطلب على ضوء هذه المعطيات الحيوية توفر شرط جوهرى يتمثل في مبدأ التبادل الحيوي (المعقد) ما بين الكائن البشرى منذ ولادته والبيئة المادية والمعنوية و الروحية وانطلاقا من طبيعة العلاقة المتبادلة ما بين الأشخاص و " المجال " من أجل تحقيق مشروع الثقافة. يقول الأنثروبولوجي الأمريكى إدوار هول (Edward Hall) في هذا المعنى: "...من أجل أن نفهم الإنسان يجب أن تتكون لدينا مفهوم (une notion) حول أنساق (عناصر الثقافة الأربعة) باعتبارها أنساق استقبال [حسية، وجدانية، عقلية وباطنية] كما علينا أن نتعرف على الكيفية التي تحول بها الثقافة هذه المعلومات المتضمنة في هذه العناصر الثقافية." ⁶

³- بن نبي مالك، المصدر نفسه، ص 56 و ص 57. ملاحظة منهجية: يذهب العديد من الفلاسفة البارزين والمعاصرين في الغرب من خلال تعقيهم الزمنى للجنسانية (l'histoire de la sexualité) خاصة في عملية مراقبة نمو الجسد وتقنين مراحلها على سبيل المثال لا الحصر أن نقطة التكون هذه تجد دلالتها في مختلف الممارسات الندمية للمسيحية الوسيطية أو بالأحرى في تلك السلسلة المزدوجة المشكلة من الاعتراف الواجب، الشامل و الدوري المفروض على كل المؤمنين من قبل مجمع "لاتران" الديني (1215م)، ومن طرائق الرهبانية والتمارين الروحي والتصوف التي تطورت بشدة خاصة منذ القرن الرابع عشر الميلادى. ثم جاءت الاصلاحات البروتستنتية لتسجل تحولا بل طفرة مهمة سماها ميشال فوكو بـ "التكنولوجيا التقليدية للشعوة الجسدية" رغم بقاء مبدأ "الاعتراف" و "التوبة" بشرطان مسؤولة الفرد امام خالقه خاصة في القرنين السادس والسابع عشر. ثم تجمدت في القرن الثامن عشر الميلادى في صياغات معتدلة. أمما في نهاية القرن الثامن عشر ولحد اليوم نشأت تكنولوجيا للجنس جديدة كليا، جديدة، لأنها دون أن تكون مستقلة واقعيا عن جوهر الخطيئة كانت تفلت من حيث الأساس فيها من السلطة الكنسية. فبواسطة التربية و الطب والاقتصاد كما يذهب فوكو كانت تجعل من الجنس لامسئلة دنيوية لائكية وحسين وإنما أيضا مسئلة تخص الدولة في علاقتها الجدلية مع الأفراد و الجماعات الاجتماعية المتميزة خاصة السيكولوجيين والأطباء والديمغرافيين. للإستزادة حول هذا الموضوع راجع على سبيل المثال المقاربة القيمة لـ: ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية: إرادة العرفان، الجزء الأول ترجمة محمد هشام، دار إفريقيا الشرق، المغرب 2004، ص ص 97-111.

⁴- بن نبي مالك: المصدر نفسه، ص 57.

⁵ أنظر على سبيل المثال:

Hall T. Edward, La dimension cachee, traduit de l americain par Amelie)
petita, postface de

.francoise choay, ed., du seuil, Paris, 1971, P. 61-62

وللمزيد من التفاصيل راجع: ص ص 60-201 من نفس الكتاب.

إذن تصبح كل ثقافة ضمن هذه الرؤية الإستيمولوجية هي بالضرورة تركيب أو تأليف لعالم الأفكار، عالم الأشخاص وعالم الأشياء ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية، وهذا في إطار منهج تربوي تتمفصل عبره العناصر الأربعة: (الأخلاق، الجمال، العمل، العلم). هذه الأخيرة التي تتفاوت في تعقيدها باعتبارها مقومات أخلاقية، جمالية، فلسفية ومعرفية في أية ثقافة أو حضارة. وبأسلوب تقريرى نقول إن الثقافة تركيب عام لتراكيب جزئية أربعة هي: القيم الأخلاقية، الذوق الجمالي، المنطق العملي و الصناعة. فالثقافة في ظل هذه الأبعاد الحيوية، يمكن تعريفها عمليا على النحو الآتي: " [إنها] مجموعة من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه." (7) ويعلق بن نبي على تعريفه المركب هذا قائلا: " وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذي يحدد مفهومها، فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه فلسفة الإنسان (philosophie de l'homme Une) وفلسفة المجتمع (Une philosophie de la société) ولكن في إطار تركيبة حضارية أصيلة وخالقة." (7)

إن خصوصية التعريف البنابي تكمن في محاولة استدراك ذلك النقص الذي تضمنته التعاريف السابقة حينما أخذت بعض هذه التعاريف في إطار المدرسة الغربية تراث "الإنسانيات الإغريقية- اللاتينية " أو/و "عصر النهضة" مرجعا يتحدد على ضوء مفهوم ثقافة الجمال كفلسفة الإنسان. بينما اتخذ البعض الآخر التراث الماركسي نقطة ارتكاز، يرى على ضوءه في الثقافة الجمالية فلسفة مجتمع أولا وأخيرا. فمفهوم الثقافة سواء عند الغربيين أو عند المفكرين الماركسيين، يظل من الوجهة التربوية "فكرة عامة" لا نلمس فيها ذلك الربط العضوي البين بين الثقافة و الحضارة كما هو الحال في الثقافة الإسلامية الأصيلة والخلافة وهذا ما حاول بن نبي استحدثه بطريقة كيفية على مستوى المضمون. فمن خلال هذا الربط البنابي الكيفي، ستتجاوز الثقافة إطارها الكامن حول المعرفة (نظرية في المعرفة) لتصبح بطريقة إجرائية نظرية في السلوك. وهذا وعيا من بن نبي بأن السلوك الاجتماعي للفرد أوثق صلة بالشخصية منه بجمع المعلومات (رصف محض للمعلومات)، أي أن السلوك الاجتماعي للفرد خاضع لأشياء أعم من المعرفة العلمية. وبناء على هذه الرؤية البنابية يمكن أن يقاس الفرق بين الثقافة و العلم. ولفهم هذه الخاصية الجديدة في تعريف الثقافة علينا أن نتصور -حسب بن نبي دائما- وعلى سبيل المثال لا الحصر- فردين يختلفان عن بعضهما البعض من حيث الوضعية السوسيو-اقتصادية، في الوقت الذي ينتميان فيه إلى مجتمع واحد. فليكن الأول يمارس مهنة الطب إنكليزي و الثاني فلاح إنكليزي أيضا. كما يمكن أن نتصور من جهة ثانية، شخصين يمارسان نفس الوظيفة، ولكن ينتميان إلى مجتمعين مختلفين من حيث درجة التطور الحضاري. لا شك أن الرجلين الإنكليزيين السابقين (الطبيب و الفلاح) يتشابهان إلى حد بعيد من حيث المواقف تجاه الحياة ومشكلاتها المادية والمعنوية. وإن هذا التشابه و التماثل في الرأي يجد دلالاته الحيوية فيما سمي بـ "الثقافة

⁶ - بن نبي مالك، نفس المصدر السابق، ص 74.

⁷ - بن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، إصدار مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1979، ص 83.

الإنكليزية". أما الرجلين الآخرين، المشتركين في نفس الوظيفة و المختلفين من حيث الانتماء الثقافي سيختلفان حتما في مواقفهما تجاه المشكلة الواحدة مما يدل على أن أساس التباين و التمايز كامن في ذلك التباين الثقافي الذي يميز مجتمعا عن آخر. ويستطرد مالك بن نبي مستخلصا في هذا المنحى (الثقافي) بقوله: "هذا التماثل في السلوك في الحالة الأولى، و الاختلاف في السلوك في الحالة الثانية، هما الملاحظتان المسلم بهما في المشكلة التي أمامنا، وعليه فالتماثل أو الاختلاف في السلوك ناتج عن الثقافة لا عن العلم." (8) وفي هذا المنظور الميتودولوجي المتميز، يطرح بن نبي مسألة توجيه الثقافة، كإشكالية إستمولوجية تتعلق أساسا بإشكالية الفعالية في عملية توجيه الثقافة و التنمية. إن فكرة التوجيه عند بن نبي بصفة عامة تعني " قوة دافعة، و توافقا ملحوظا في السير ورؤية موحدة في الأهداف و الغايات. فمثل هذا التوجيه من شأنه أن يساهم بشكل حيوي في اقتصاد الوقت و الجهد و التكاليف المادية لأنه حين يدخل مثل هذا الجهاز البشري المكون من ملايين العقول و السواعد حلبة الصراع الحضاري سيكيف حتما "إحداثيات" حركته الفاعلة، طبقا للأهداف المسطرة في المكان و في الزمان والمشروطة دينيا وأخلاقيا (حضاريا)... وفي هذا تكمن أساسا فكرة توجيه الإنسان، الذي تحركه دفعة دينية يستوحي منها هذا الإنسان معنى " روح الجماعة" و معنى "فلسفة الكفاح" و يعيد إنتاجها عبر الأجيال كميراث حضاري أصيل و خلاق. (9) و يصبح التاريخ الثقافي في المجتمعات العربية و الإسلامية وفي ظل فلسفة التوجيه هذه، من الأشياء الجوهرية التي ينتظم تعريفها على ضوء التقييم الشامل لتاريخ الحضارة الإسلامية في مرحلة النهوض و النضج أو/و في مرحلة الضعف و التقهقر، وأثار "التجربتين" في الأنفس و الأشياء... لا ريب أن مثل هذه القراءة النقدية على الطريقة البنائية لن تتعلق بوضع منهاج جديد للتفكير على عجلة من الأمر بقدر ما تتعلق بتحديد محتوى العناصر الجوهرية الضرورية في كل ثقافة تحديدا تربويا يضطلع بمهمة التفكيك و التركيب الحضاري الخلاق. هذا ما شهده العالم العربي و الإسلامي منذ أكثر من خمسين سنة على يد بعض كبار رجال الإصلاح من أمثال جمال الدين الأفغاني و تلميذه محمد عبده. لقد أصبحت أزمة التخلف الثقافي و الحضاري، خاصة عند العلامة جمال الدين الأفغاني محل نظر و تأمل و بحث علمي متميز، يسعى إلى تشخيص الأبعاد الظاهرة و الباطنة بروح نقدية مسؤولة أمام الأجيال، وهي في الواقع عملية ليست سهلة، ولكنها غير مستحيلة. إن الحضارة الإسلامية نفسها قد بادرت وفي وقت واحد إلى القيام بمثل هذا التحديد أو بالأحرى بمثل هذه الثورة في منظومة العلاقة العضوية ما بين عالم الأفكار و عالم الأشخاص و عالم الأشياء سواء على مستوى فلسفة النفي (نفي الأفكار الجاهلية البالية) أو/و على مستوى فلسفة إثبات مشروعية التأسيس و النهوض وكان هذا من خلال إشراف الفكرة الإسلامية الصافية من كل الرواسب الفكرية و الأخلاقية، و وضعها موضع التنفيذ في إطار مشروع حضاري جديد، فقد أصبحت الحضارة الإسلامية ضمن هذه القفزة النوعية، تحمل أفكار "النخبة" كما تحمل في نفس

8- بن نبي مالك: شروط النهضة، نفس المصدر السابق، نفس الصفحة.

9 - للمزيد من التفاصيل حول نفسية سيكولوجية الجماعات في المكان و في الزمان (في بعض الحضارات) راجع: لوبون غوستاف، روح الاجتماع (Psychologie des foules)، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا (رسالة)، سلسلة العلوم الإنسانية: (الأنيس) تحت إشراف على الكنز، دار موقم للنشر، الجزائر، 1988، 241 صفحة.

الوقت أفكار "العامه" موضوعه على مستوى إطار واحد من الاستعدادات والقبليات المهنية و الاتجاهات الموحده و الأذواق المصقولة.

2- فكرة التوجيه التربوي (تراكيب جزئية وتركيب عام):

في الواقع، لقد أصبحت الأفكار في إطار هذا المركب الحضاري الجديد للثقافة تتفاعل وتتلاقح في برنامج تربوي أصيل وخلق يتألف من أربعة عناصر جوهرية هي:

(1)-عناصر الأخلاق من أجل تكوين الصلات الاجتماعية.

(2)-عناصر الجمال من أجل تكوين الذوق العام.

(3)-منطق عملي من أجل تحديد أشكال النشاط العام.

(4)-الفن التطبيقي المطابق لكل نوع من أنواع المجتمع ويتمحور حول

الصناعة (La technique) حسب الصياغة الخلدونية.

1-التوجيه الأخلاقي: يقصد بالأخلاق ذلك التركيب التربوي الذي

يشترط العلاقات الاجتماعية في المجتمع معين، وفقا للأهداف الكامنة و المعلنة التي تسعى هذه الجماعة أو تلك إلى تجسيدها في المكان و الزمان. (10) ويعلل

بن نبي أن هذا التركيب التربوي الذي يشترط كل العناصر الثقافية المذكورة أعلاه، يشكل في الواقع الرابطة الحيوية لإعادة إنتاج قوة تماسك أفراد مجتمع من المجتمعات، عندما يجد هؤلاء الأفراد أنفسهم كجماعة، أي كوحدة تاريخية انصهرت في شكل قبيلة أو عشيرة أو مدينة أو أمة. "...فالمجتمع الذي يتجمع

لتكوين حضارة، فإنه يستخدم نفس الغريزة (غريزة الحياة الجماعية) ولكنه يهذبها ويوظفها بروح خلقية سامية. وهذه الأخيرة هي منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات في رحم الحياة

الاجتماعية...واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم

بنعمته إخوانا...،¹¹ وألف بين قلوبكم، لو أنفقتم ما في الأرض جميعا ما ألفت

بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم. (الأنفال: 63) (12). فيفضل

هذا التلائم و التآزر النوعي، بزغت الحضارة الإسلامية إلى الوجود كذلك كان

الأمر بالنسبة للحضارة المسيحية وإن اختلفتا من حيث الخصوصية الإيديولوجية

والثقافية. بل إن "روح" هاتين الحضارتين لازالت تسري في صميم العلاقات و

الأشياء وإن اختلف مظهرها المدني الجديد نسبيا وفي هذا الإطار "التكيفي"

للفكرة الدينية أو الأخلاقية، يصبح من الخطأ بمكان أن يحسب شبابنا ومثقفينا أن

الأوضاع الحالية قد تغيرت جذريا ولم يعد للفكرة الدينية أي دور خاصة في

المدنية المعاصرة حيث السيادة المطلقة للعقل لا للروح! "فالمظاهر - كما تقول

الحكمة الفرنسية- خداعة أحيانا". فلو تناولنا بالدراسة التاريخية مشروعا

اجتماعيا وليكن -على سبيل المثال لا الحصر- جمعية حضانة الأطفال في بلد

أوروبي كفرنسا لعرفنا أن أصولها الفكرية التربوية الأولى تعود في الواقع إلى

تلك الأعمال الخيرية التي أضطلع بها بعض رجال الدين المسيحيين بهدف إصلاح

المجتمع الفرنسي. فعلى الرغم من وجود هذه الجمعيات في الوقت الراهن تحت

¹⁰ أنظر، على سبيل المثال:

Gaid Tahar, Dictionnaire élémentaire de l'Islam, éd. O.P.U, 1991, avoir article « Morale ». , pp 289-295

¹¹ - سورة آل عمران: 103.

²¹¹ - أنظر، بن نبي مالك، نفس المصدر السابق، ص 88.

سلطة دولة لا دينية (لائكية) إلا أن دور حضانة الأطفال المنشرة في ربوع فرنسا، لازالت تدين بالفضل [تاريخيا] إلى جهود القديس "فانسان دي بول" (Saint Vincent de paul) (1581-1660) من أجل إنقاذ الأطفال المشردين إيماناً منه بقداسة الجسد وحقه في الحياة الكريمة بغض النظر عن أصوله الإجتماعية الاقتصادية. فهو يعد من الأوائل الذين أسسوا مشروع الأطفال الذين أصبحوا بدون حماية مادية أو/و معنوية وكان هذا تقريبا خلال النصف الأول من القرن السابع عشر (1634م).⁽¹³⁾ وعليه يتضح لنا من خلال إيراد بعض الأمثلة و الشواهد التاريخية، أن الكثير من المفاهيم البيولوجية والسيكولوجية الحديثة والمعاصرة في المنظومة المعرفية للحضارة الغربية الحديثة و المعاصرة مثل: التربية (L'éducation)، الجمال (La beauté)، المتعة (Le plaisir)، التربية الجنسية (L'éducation sexuelle)، التربية الشعورية (L'éducation sentimentale)، الطفولة (L'enfance)، الحب (L'amour) وغيرها إلا وتحمل بصمات تاريخية دينية ظاهرة أو مستبطنة، تركتها الروابط الدينية بدرجات متفاوتة شدة وضعفا على أكثر من صعيد، سواء في قالبها الديني أو الأسطوري في الشرق أو في الغرب. وهذه حقيقة علمية أثبتتها الدراسات التاريخية والأثرية الحضارية المتعلقة بعلم الانتروبولوجيا والسيكولوجيا الدينية وأخيرا وليس آخرا علوم التربية المقارنة قديما وحديثا.⁽¹⁴⁾

2- التوجيه الجمالي: لا ريب أن للجمال -حسب بن نبي- أهمية وجودية من منطلق أن الله جل جلاله جميل يحب الجمال. فهو (الجمال) أحد مقومات الثقافة. وإذا أردنا ترجمة هذا الاعتبار الفلسفي من الواجهة الاجتماعية، قلنا أن الأفكار بوصفها محركة للنشاط الفردي و الجماعي، وبغض النظر عن علاقة ذلك بمشكلة الفعالية، هي تحمل في طياتها بعدا اجتماعيا. هذا الأخير يظل ينعكس بطرق شتى في المجال الحيوي الذي يعيش فيه هذا الإنسان. "فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات، وروائح، وحركات، وأشكال، يوحى للإنسان بأفكار، يطبعها بطابعه الخاص من الذوق الجميل، أو السماحة القبيحة. فبالذوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعا إلى الإحسان في العمل، وتوخيا للكريم من العادات."⁽¹⁵⁾ لقد جاء في اللغة ما يفيد هذا المعنى الأخلاقي حيث يتلخص تعريف الجمال كما يلي:

جميل: جمع. (جميل الشيء جمالا): جمعه بعد تفرق. (جميل جمالا): حسن خلقا وخلقاً فهو (جميل) وهي (جميلة). (أجميل) الشيء: جمعه أو ذكره من غير تفصيل. (أجميل الشيء): حسنه. (جمله): صيره جميلا. (جامله): أحسن معاملته

³¹² للمزيد من التفاصيل حول هذه الشخصية الدينية راجع على سبيل المثال: Petit Larousse illustre, 2ème éd. Revue et augmentée, Paris, 1984, voir (Saint vaincent de paul), p. 1769.

⁴¹³- بولبي جون، رعاية الطفل وتطور الحب، ترجمة السيد خيرى، دار المعارف، القاهرة، 1968.

TOYNBEE, Arnold, L'histoire, Eds. Bordas, Paris, 1985, PP 651-656

ELIADE, Mircea, Mythes, rêves et mystères, Coll : Idées, Eds. Gallimard, Paris, 1957, PP 256- 279

وعشرته أي عامله بالجميل. (أجمل) في العمل: أحسن صنعا. (أجمل) في الطلب: اعتدل ولم يفرط. (تجمل): تزين وتحسن. كما تفيد معنى صبر على الدهر ولم يظهر على نفسه الذل. يقال: تكلف الجميل: أي لزم الحياة ولم يجزع جزعا قبيحا. (تجمل في الكلام): تلتطف. (استجمل الشيء): عده جميلا. (الجميل): الإحسان و المعروف. (الجميلة): هي التامة الجسم. ويقال أيضا: (الجملاء): الجميلة من فعلاء... الخ⁽¹⁶⁾

يقول الدكتور علي شلق في سياق حديثه عن فلسفة الجمال عند المسلمين: "عندما عرض القرآن الكريم صوراً عن الجنة، وصوراً عن النار، فقد كان يرسم طريقي الثواب و العقاب. بيد أن هذين الطريقتين ارتسما بأسلوب جمالي (تصوير فني) خلاب متوكل على أدب العرب وفهمهم وثقافتهم فيما سبق من أيام وعصور... وفي حديث الرسول الكريم صور جمالية رائعة الوصف و الإبداع، بيد أن ذلك جميعه لم يهدف إلى مجرد التعبير عن الجمال و الجلال، وإنما قصد إلى الهداية وهي موضوع التزام ومعاطاة..."⁽¹⁷⁾ ويقول المفكر سيد قطب في هذا المعنى: "إن القرآن يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية، بلغة الجمال الفنية. وللفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس. وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني، حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع، وحين تصفو النفس لتلقي رسالة الجمال."⁽¹⁸⁾

من هذا المنطلق الميتافيزيقي، اهتم علماء الأخلاق من المسلمين وغيرهم بدراسة الجمال وتقريره في الروح الاجتماعية نتيجة إهتمامهم بالنفس البشرية في مختلف مراتبها ومداركها الحسية والمعنوية. فهذا الإمام أبو حامد الغزالي على سبيل المثال لا الحصر في كتابه الشهير "إحياء علوم الدين" يضيف على الجمال قيمة صوفية، يحتل فيها "الإحسان" أسمى مراتب الإحساس (الباطني) حيث يقول مقررًا: "يدرك الجمال الحسي بالبصر، والسمع وسائر الحواس، أما الجمال الأسمى فيدرك بالعقل والقلب." ثم يقول موضحًا: "إذا كان الجمال يناسب الخلقة، وصفاء اللون، فإنه يدرك بحاسة البصر، وإن كان الجمال، بالجلال، والعظمة، وعلو الرتبة، وحسن الصفات والأخلاق، وإرادة الخيرات لكافة الخلق، وإفاضتها عليهم على الدوام، فإنه يدرك بحاسة القلب. وعليه يصبح "لا خير و لا جمال، ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسنات الله، وأثر من آثار كرمه وغرفة من بحر جوده، سواء أدرك هذا الجمال بالحواس أم بالعقل، و جمال الله سبحانه أكمل الجمال"⁽¹⁹⁾.

⁶¹⁵- راجع الأب لويس معلوف اليسوعي، المنجد (منجد الطلاب)، نظر فيه ووقف على ضبطه، العلامة فؤاد أفرام البستاني، دار المشرق ش م م، الطبعة السابعة و العشرون، بيروت- لبنان، 1983، (الطبعة الأولى عام 1941)، "جمل"، ص 93.

⁷¹⁶- شلق علي: الفن و الجمال، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1982، ص 70.

⁸¹⁷ - قطب سيد: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، بدون تاريخ، ص 143-144. وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع: قطب سيد، نفس المرجع السابق، ص ص 143-252. وانظر أيضا، قطب سيد، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، الطبعة الشرعية السابعة، بيروت- القاهرة، 1983، ص ص 266-273.

وتتلخص ظواهر الجمال عند الغزالي في ثلاثة أقسام: حسية، وجدانية و عقلية، يشغل فيها القلب (التأمل الباطني) أسمى مراتب العرفان لأن " القلب [عند الغزالي] أشد إدراكا من العين، فالقلب يدرك الأمور الشريفة الإلهية، وإن المثل الأعلى للجمال هو الله سبحانه وتعالى. (20)"

خلاصة القول في هذا المذهب على مستوى تذوق الجماليات، كغيره من المذاهب الإسلامية أن علماء المسلمين على اختلاف نحلهم، شرطوا لإدراك البعد الجمالي في الكون، وجوب تفاعل الحواس مع العقل، مع القلب (التأمل الباطني)، وأقاموا ما أصطلح على تسميته حديثا بمبدأ "السيمترية" (La symetrie) قانونا عاما في الفن والجمال، هذا على الرغم من تباينهم حول الطريقة المثلى لإدراك الحسن و القبح من جهة، ومشروعية بعض الفنون كالرسم و النحت و الموسيقى من جهة أخرى.

لقد ترجم المسلمون الكثير من بعض أهم الثقافات والحضارات العالمية كتراث الهند وفارس واليونان باستثناء عزوفهم عن ترجمة الأساطير اليونانية والإغريقية. والسبب في ذلك كما يقول الأستاذ نجيب الكيلاني هو أنه: "على الرغم من أن جهاذة الفكر الإسلامي العصر العباسي، عصر الازدهار والمعرفة والتقدم العلمي، قد ترجموا آثار اليونان والهند والفرس في شتى فروع الفكر والفلسفة والعلم والآثار الأدبية البارزة، إلا أنهم أحجموا عن ترجمات المسرح الإغريقي، وترجموا فلسفة أرسطو، لكنهم رأوا أن مسرح الإغريق مليئ بالمعتقدات الدينية التي تتنافى مع عقيدة التوحيد الصافية، فلدي الإغريق أعداد كبيرة من الآلهة المتصارعة المتحاربة، والتي تحركها النزوات والأطماع البشرية، فوجدوا أن طقوس المسرح وأشخاصه وجواره، لا يتفق وطبيعة الإسلام وتصوره لماهية الكون والمشئنة والقدر والإرادة، فأصبح المسرح الإغريقي بصورة الشاذة تلك مصدرا للفساد والوثنية، لا يمكن أن يجد له متسعا في عالم العقيدة الإسلامية الصافية"²¹.

في الواقع، لازال الجدل قائما بين علماء الحديث السنة وعلماء الفقه وبدرجات أقل في المذهب الجعفري حول مشروعية الرسم والنحت التجسدي وإليكم خلاصة ما توصلنا إليه من أحكام (فقهية) حول فن النحت والتصوير المستنبطة من المجامع الفقهية في العالم العربي والإسلامي:

- 1-التحريم واقع -بنص الأحاديث الشريفة- على جزء من الفن.
- 2-التحريم غير مطلق بمعنى أن التحريم لا ينطبق على كل الفن التشكيلي.
- 3-مازال التحريم واقعا ما دامت الأسباب التي من أجلها وقع التحريم موجودة.

- 4-يقع التحريم على الفن المستخدم للدعوة الوثنية بأشكالها المختلفة.
- 5-تحريم التماثيل التي تنحت للعبادة والمضاهات والتقديس.

(19) - الغزالي أبي حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار الرشد الحديثة، المجلد الثاني بدون تاريخ، نقلا عن شلق على، المرجع السابق، ص 71-72

⁰¹⁸ - نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.

²¹ - الكيلاني نجيب، "المسرح الإسلامي"، بحث مقدم إلى ندوة الأدب الإسلامي المنعقدة في الرياض، 1404هـ/1405هـ، ص 04، نقلا عن: الشامي صالح، الفن الإسلامي: إلتزام وابتداع، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق، 1990، ص 89. للاستزادة حول هذا الموضوع، راجع: ص 89-90.

- 6- تحريم التماثيل المجسمة التي فيها إهدار لكرامة الإنسان وامتهان لعفاف المرأة المصانة.
- 7- تحريم الفن الداعي للفجور والإباحية.
- 8- إباحة الفن التجريدي من نحت وتصوير ورسم.
- 9- إباحة الفن التعبيري والتوضيحي بالوسائل السمعية البصرية.
- 10- إباحة رسم الأشياء بأسلوب تجريدي.
- 11- الدعوة لفن يوجد التوازن النفسي للإنسان وفي اتصال بالكون.
- 12- الدعوة لفن سام لطبيعية موسيقية من خلال عقلية هندسية.
- 13- إباحة النحت التجسيمي والتصوير الواقعي إن استخدم للتعليم والدراسة وحفظ التراث⁽²²⁾.

وإزاء ما سبق، وحتى نكون على بصيرة من أمرنا، ينبغي أن نحدد موقفنا كمفكرين من الفن "غير الملتزم" ونعني بالفن الغير الملتزم ما صدر عن فنان مسلم ولادة ومجتمعاً، ولكنه "غير ملتزم" فكراً وسلوكاً، وكذلك ما يصدر عن الفنان غير المسلم ("الآخر"). والسؤال المطروح هنا هو: أين يجب أن نقف من إنتاجهما بشكل عام؟ إنه لا ينبغي لنا كعرب وكمسلمين أن نتفوق على أنفسنا، ونحجب أعيننا عما حولنا من حركة عالمية على مستوى عالم الأفكار وعالم الأشياء من إبداعات واكتشافات إنسانية مفيدة، بل لابد أن نجعل حواسنا فاعلة قادرة على الاستطلاع الواسع واستشراف المستقبل، كما هي قادرة في الوقت نفسه بما أوتينا من استعدادات فطرية وضوابط شرعية (مقاصدية) على التمييز بين الغث والسمين، أي بين الفن السامي الراقى والفن الهابط. وفي هذا الإطار المنهجي الأصيل والخلاق يتفق الأساتذة محمد قطب وعماد الدين خليل ومحمد المنتصر الريسوني ونجيب الكيلاني على ضرورة التعرف على تراث البشرية، ومتابعة المعطيات والمستجدات الأدبية والفنية في العالم كله، دراسة ونقداً ومقارنة.. ثم إصدار الحكم عليها لا بالرفض أو بالقبول ولكن بالاختيار والانتقاء، والعزل والفصل والتفكيك ثم إعادة البناء على أن يضل في مفهومنا على أنه جمال جزئي، وأنه - بكل ما فيه من جمال وروعة- يقوم ابتداءً على قاعدة أدنى وأصغر من القاعدة التي ينبغي أن ينشأ عليها الفن الإسلامي، الكوني، الإنساني، الشامل والمتكامل الذي يشمل كل الوجود وكل الإنسان⁽²³⁾.

على العموم تبقى مسألة غزارة إنتاج المسلمين في مجال الفن الأدبي و التذوق الشعري على حساب الموسيقى و الرسم و النحت دليلاً على وجود أزمة في الخطاب العربي الاسلامي (الفقهي) عند بعض المذاهب لازلتنا نستنتج آثارها الجانبية (المعقدة) عند بعض الفقهاء والمحدثين المعاصرين. ويبقى فن "الزخرفة"، أي "الاراييسك" بالتعبير الحديث على الرغم من أزمة التفكير هذه في أبعادها المعقدة يلعب دور البديل، والدليل على ذلك هو استمرارية الحضور الفني الإسلامي الحضاري (العمارة الإسلامية) المتميز في الفن العالمي، كمظهر من مظاهر التوحيد والعرفان في المكان و في الزمان. أما عندما يستعرض

²²⁾ للاستزادة حول هذا الموضوع، راجع: عبده مصطفى، أثر العقيدة في منهج الفن الإسلامي، دار الإشراف للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1990، ص 124.

⁽²³⁾ للاستزادة حول هذا الموضوع، راجع: عبده مصطفى، نفس المرجع المذكور، ص ص 85-134.

للمزيد من التفاصيل حول هذه الفكرة راجع: الشامى صالح أحمد، الفن الإسلامي: التزام وابتداع، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق، 1990، ص ص 69-99.

الباحثون فلسفة الجمال في المسيحية، تتجلى أمام القارئ أو المشاهد مظاهر العطاء الفني خلال القرون الوسطى في معالم صور تعيد إنتاج ذلك الارتباط الروحي بالحياة الأخرى، يتجاوز فيها الإعجاب المكان والزمان إلى حيث الروعة والجلال. وهذا بمنأى عن دنيويات الوثنية اليونانية و الرومانية. ولن نبالغ إذا قلنا بأن المسيحيين سواء أكانوا رجال دين أم أتباع تمثلوا تلك الصور والتماثيل والزخارف البلورية أو الألحان الكنسية في بعدها الديني والتاريخي إبان القرون الوسطى واعتبروها أشكالاً جمالية فريدة، فعلى الرغم من تفاوتها الفني والجمالي ظلت تعبر في جوهرها عن تطلعات روحية نحو المثل العليا نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر "مشاهد التضحية"، "الاستشهاد"، "الأمومة"، "العذاب التقوى"، "الزهد"، "الصبر"، "الفرح" وغيرها من المثل والفضائل الإلهية والإرهاصات الروحية "فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"*. وهكذا تجلت كل هذه الأبعاد الدينية الجمالية في أشكال صورت المسيح عليه السلام، والعذراء البتول، و الحواريين، و القديسين، في مختلف الأوضاع و المناسبات التاريخية، مثل الصليب، والعمادة والعشاء الأخير، و القربان، و الملائكة. وناهيك فقد حفلت العمارات والقصور و القلع وغيرها من البنايات العتيقة بالرسوم، و التماثيل التي تعبر عن توظيف رائع لمبادئ التعادل، و التناسب والإنسجام الذي لا يخلو من "إعجاز" فني وفلسفي مسيحي خاص في المكان و الزمان رغم تطور الأذواق الفنية والفلسفية اللاحقة عند الأفراد والجماعات الاجتماعية المنتمية وهذا حسب العديد من الفلاسفة ومؤرخي الفن الغربيين. (24)

باختصار يمكن القول انه رغم المثل المنشودة من خلال التصوير الفني التجسدي للرسول والأنبياء والشهداء والقديسين وعلى رأسهم السيد المسيح وأمه مريم العذراء تضل المفارقة قائمة على مستوى تصوير الدين المسيحي لصورة المرأة كما وكيفا. "فالكنيسة ترى أن الطبيعة لم تتغير بظهور المسيح (عليه السلام)، وإنما تماثلت إلى الشفاء وأصبحت مضيئة؛ وبذلك فقد استمرت الاختلافات الجوهرية بين المرأة والرجل وكذلك وظائف كل منهما. وبقيت المرأة تابعة للرجل [جسدا وروحا]: فهي بمقدورها أن تعزز من مكانتها وشأنها عن طريق الارتباط بالرجل والإنصياع له. وبإمكانها الإشتراك في النشاطات المدنية بواسطة الزوجية والأمومة. وبالنتيجة لم يكن بمقدور المرأة أن تحقق لنفسها الاقتدار والقوة في إطار المسيحية إلا في بعض الحالات الشاذة النادرة .. فتقبيح الطلاق حتى من الرجال ذوي السلوك المشين، واستكار الزواج الثاني في جميع الأحوال والأوضاع، وتحريم منع الحمل وإجهاض الجنين، والحث على الاستسلام للزوج، قد حدد حياة المرأة كثيرا حتى أكثر مما هو متعارف عليه في المجتمعات غير الدينية أو الثقافة اليونانية"⁽²⁵⁾. ويذهب الباحث لوفر ديير أوجين (Leverdier re Eugene) في حديثه عن علاقة مريم الأم بعيسى الإبن (عليهما السلام) إلى

¹⁹ إنجيل متى، الإصحاح الرابع.

⁴²⁰- للمزيد من التفاصيل حول البعد الجمالي و الوظيفة المعرفية للفن و الأدب أنظر: Schuon Frithjof, Sentiers de gnose, la colombe (éditions du vieux colombier), Paris, 1957, pp 110-128

وانظر أيضا الدراسة القيمة حول سوسولوجية الفن ل:

.DUVIGNAUD, Jean, Sociologie de l'art, PUF, Paris 1967

CUVILLIER, Armand, Cours de philosophie, Librairie Armand Colin, Tome 2, Paris, 1954, PP. 216-226

مسئلة تأكيد إستمرارية جدلية الروح والجسد حيث أفادت بعض المصادر التاريخية إلى أن الحديث دار في هذا الشأن في البداية عن عروج مريم بروحها فقط إلا أنه ومنذ زمان "غريغوريس التوريسي" شاعت فكرة حمل جسد مريم بواسطة السحاب إلى الجنة فانضمت الروح إلى الجسد فأصبحت مريم مسرورة إلى جانب المسيح عليهما السلام. وهكذا تصور المسيحية أن تكريم مريم كإمرأة أنقذت البشرية كصورة حسية ومثالية بديلة لصورة حواء (البشرية) إلى الحضيض (الخروج من جنة عدن).. ورغم هذا فإن ذلك الاحترام والتقدير الذي كانت تحضى به مريم ومن ثم المرأة في تصور الكنيسة المسيحية لم يدم طويلا فقد أصبحت مريم تدريجيا ميزتها الأثوية الوحيدة تتلخص في أنها أضحت أما كثيرة المعهانة، منفعة وضحية الشهوات الدنيوية⁽²⁶⁾.

أما النظرية الماركسية في علم الجمال فتتلخص في أن تاريخ الجماليات (L'esthétique) هو في الواقع نتيجة الصراع الطويل بين المادية و المثالية، وهذا من منطلق أن المادية الجدلية تبحث في التطور التاريخي، من أجل تطبيق نواميسه في مجال العلم و المعرفة. يعتقد ماركس أن الإنسان كائن يؤكد ذاته بكل مشاعره في العالم المادي، لكن البورجوازية هي التي ساهمت في خلق فن وهمي (مثالي) بعيد عن الواقع الموضوعي الأمر الذي أدى إلى تحريف الرؤية الإنسانية عن مسارها الطبيعي، أي عن حقيقة الصراع الطبقي... ونفهم من هذه المقولة الماركسية أن تصور الجمال، ليس فطريا (مثاليا) في الإنسان، بل يتكون الإحساس بالجماليات عن طريق الممارسة العملية، المادية، الطويلة. فتصور الجمال في هذا الإطار، مرتبط إرتباطا عضويا بالنشاط الواعي و الهادف لأن الإنسان حسب ماركس وانجز ما هو في الحقيقة إلا مجموعة علاقات اجتماعية-اقتصادية. وإن الطبقة البروليتارية بحكم أنها هي الطبقة الأكثر ثورية في المجتمع، تظل تملك ذلك الإحساس الحقيقي بالعالم الأكثر تكاملا. إن ثورية هذا الإحساس العفوي هو في الوقت ذاته، تعبير خاص حسي مباشر، يتم فصل عبر رؤية نوعية للجسد ومن ثم للفن وللجمال، أي رؤية واقعية ممثلة بشكل صريح وضمني فيما اصطلح على تسميته في الأدبيات الماركسية "بالفن الاشتراكي" و"التربية الاشتراكية". كما انتقد "لينين" بشدة وفي نفس الخط المثالية الظاهرة أو المتوارية في علم الجمال وأنكر أن يكون الفن، كروية إنسانية نبيلة بعيدا عن الأم و أحلام الجماهير المضطهدة والمستلبة جسدا ووعيا. إن "أسطورة الفن للفن" عند لينين لا أساس لها من الصحة، بل هي ببساطة فكرة يوتوبية (utopique) حيث يقرر: "لا أستطيع أن أعتبر مؤلفات المدرسة الإنطباعية، و التكعيبية، والمستقبلية، وما يماثلها، غاية العبقرية الفنية، إني لا أفهمها وهي لا تبعث في نفسي أي شعور بالفرح لأنها لا تعبر تعبيراً صادقا عن الأم وأحلام البروليتاريا في صراعتها الطويل مع البورجوازية." (27)

⁽²⁵⁾ فاروزان الراسخي، المرأة في العرفان الإسلامي والمسيحي (حتى القرن الثامن الهجري) دار الهادي، الطبعة الأولى، بيروت، 2004، ص 119-120. (بقليل من التصرف) AROUA, Ahmed, l'islam et la morale des sexes, Eds. OPU, 2^{eme} éd. Alger, 1992, PP 42-45

BOLOGNE, J.C., Histoire du mariage en occident, Eds. J.C. Lattès, Paris 1995, PP 130-181

⁽²⁶⁾ فاروزان الراسخي، المرجع نفسه، ص 125-126.

27- شلق على: نفس المرجع السابق، ص 81. وللمزيد من التفاصيل حول الموقف الماركسي من الجمال راجع: ص ص 77-83.

وهكذا تصبح مسألة الإدراك الجمالي في غايتها القصوى لا تدور في فلك المنفعة المادية، باعتبارها (غاية الفن) منوطة بتغير العالم تغييراً عملياً (La praxis). وإذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن الفكر الماركسي يقف موقفاً راديكالياً ومناقضاً لسائر المثاليات الفكرية أو الدينية. و الملفت للانتباه أن المفكر مالك بن نبي يتفرد أمام هذه المواقف الفلسفية و الإيديولوجية المتباينة تجاه عالم الجماليات، برؤية إسلامية حضارية متميزة، خاصة عندما يتجاوز إدراكه السوسولوجي تلك التعاريف الأكاديمية أو المعجمية حول مفهوم الجمال. في الحقيقة، نجد أنه يتعامل مع هذا البعد الفطري من موقع تربوي، بعيد عن كل اتجاه ميتافيزيقي ضيق، أي بعيد عن تلك الصراعات المذهبية، والمنازعات الكلامية و الفلسفية والفقهية التي عرفتھا المجتمعات العربية و الإسلامية، خصوصاً بعد غلق باب الاجتهاد رسمياً وعلى أكثر من صعيد خاصة في العالم السني. يقول مالك بن نبي في تعريفه للبعد الجمالي: "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالاً أقيح، و المجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة، لا بد أن يظهر أثر هذه الصورة في أفكاره، وأعماله، ومساغیه." (27) إن هذا التعريف المتميز، يعد تعريفاً إجرائياً، خاصة عندما نجده يقترب من تلك الواجهة التي تعتبر الجمال كنسق معياري مهم أساسه الإحساس، حيث تنبع منه الأفكار "الحية" فتنتشر ظلالها الإنسانية على مشارف الحواس الظاهرة منها والباطنة. وفي إطار هذا التعريف المعياري، يرى بن نبي أنه ثمة عناصر تتطافر بطريقة جمالية (معقدة) في تكوين الجميل وتتلخص هذه العناصر المكونة لمفهوم الجمال و المتضمنة في التعريف السابق، كالآتي:

-النظام الطبيعي.

-العنصر الديني (الإحسان).

-الأفكار بصفتها روح الأعمال (التذوق النفسي-الاجتماعي).

-الأثر العملي (الفيينومينولوجي).

(أ) - النظام الطبيعي (إطار منسق منظم): عندما تنتظم العناصر المحسوسة بطريقة "هندسية" تتحدى الصنع البشري في المكان وفي الزمان بحيث يقف العقل أمامها معترفاً بصفة شعورية أولاً شعورية ومديناً إلى إعجازها الجمالي المعقد كما وكيفاً. فإن قوة التحدي في هذا الإطار تجعل حواسنا تتأثر إيجابياً فتترجم إلى إرتياح نفسي واستحسان، كقولنا لشيء إنه جميل أو إنها جميلة.

إن هذا التناسق والإنتظام اللذان يوحيان بالكمال (La perfection) على مستوى الخلق والإبداع و التدبير، يراهما بن نبي كشرط جوهري في مفهوم الجمال، وهو في هذا المذهب يتفق وما قرره العلامة الحسن بن إلهيتم في كتابه الشهير "المناظر" بقوله: "إن إدراك الجميل يكون إما بالشكل أو بالحجم وإما بالتفرق أو الإتصال وإما بالثشابه أو الإختلاف وإما بالسكون أو الحركة وإما بالشفافية أو الكثافة وإما بالبعد الذي يخفي ما يشينها ويشعت حسنھا." (28)

(ب) -العنصر الديني (الإحسان): فالمنظر الجميل لا ريب وأنه يثير في أنفسنا وبدرجات متفاوتة نزوعاً إلى التفكير و التأمل أو/و الاضطلاع بالأعمال الخيرة مع التحلي بالصفات الحميدة. فلا شك أن القيم الإنسانية في جوهرها غرفة من بحر وجوده وإحسانه، سواء أدرك الإنسان هذا الجمال و الجلال

بالحواس أم بالعقل إن في خلق السنوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض. ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار..⁽²⁹⁾ لا ريب أن تذوق الجمال يكشف عن نفسه في إبتداع الجمال وتأمله معا، فعندما نشعر بلذة الإبتداع يهرب الشعور بنفسه ويستغرق تماما في كائن آخر.. إن الجمال مصدر لا يفرغ للسعادة بالنسبة لمن يكتشف مكانه.. إنه مخبأ في كل مكان.. ويصبح نافذا بشدة في العالم الخارجي الشاسع وعوالم الذرة وفي تناسق خلايا العقل الهائل، أو في تلك التضحية الصامته التي يقدم عليها الإنسان حين يهب حياته فداءا لخلاص الآخرين.. ففي جميع أشكاله المتعددة، يكون تذوق الجمال أنبل وأهم زائر للعقل البشري الذي "خلق" عالمنا هذا. إن الإحساس بالجمال لا ينمو من تلقاء ذاته، إنه كائن في شعورنا ولكن بحالة خمول. ويظل فعلا في حقب وظروف معينة. ولكنه قد يختفي من شعوب كانت فيما سلف تفخر بفنائها العظماء وما أنتجوه من تحف رائعة..³⁰

(ج)- الأفكار بصفقتها روح الأعمال (التذوق النفسي-الاجتماعي): فالأفكار بصفقتها تلك الطاقة المحركة للأعمال بوحى من السماء، إنما تتولد على مستوى الإطار الطبيعي الذي يشمل على الألوان والأشكال، الروائح والأصوات والحركات من خلال ذلك التفاعل الخلاق (الباطني) كما تتولد على مستوى الإطار الاجتماعي من خلال "الإحسان" باعتباره صورة نفسية-اجتماعية أنتجها تفاعل المستويين ثقافيا وحضاريا.

(د)- الأثر العملي (الفيينومينولوجي): حيث إذا ما تأملنا في الشكل العام الذي نؤدي به مختلف أعمالنا، سواء ما يتعلق منها بالسلوك الاجتماعي اليومي أو بالجانب العبادي، نجد فيها أثارا مادية وأدبية على مستوى الشكل و المضمون الاجتماعي. فمثلا أسلوب التحية أو طريقة الضحك أو العطاس، تعتبر إحدى عمليات الإتصال الاجتماعي (الثقافي). هذه التصرفات بما أنها تساهم بشكل حيوي في إعادة إنتاج قوة تماسك الجماعة في المكان وفي الزمان، فإن مراعاة جانبها الأدبي (العرفي) لا يخلو من أهمية أخلاقية وبعبارة أدق نقول أن هذه التصرفات، إذا ما جاءت بطريقة مألوفة مع المقام بحيث لا تؤدي إلى أي رد فعل سلبي (إشمئزاز أو غضب) عند المشاهد أو المستمع، اعتبرناها مقبولة اجتماعيا بدليل رد الفعل الاجتماعي (العرفي) المنسجم (جمالية ثقافية) و العكس صحيح. وقياسا مع الفارق إذا ما تأملنا الشعائر الدينية في طريقة إقامتها سواء على مستوى اللفظ (القراءة والدعاء) أو/و الحركة، كان وصفنا لها بعبارات لا تخلو من جمال وجلال، باعتبارها ألقاظا وحركات فردية أو/و جماعية ذات دلائل "إعجازية" و "جمالية" (معجزة الرسالة المحمدية)، أي أنها تكون في شكلها ومضمونها العام و الخاص، منظرا جميلا ومؤثرا لأن الحكمة من وراء ذلك أن العمل الذي

⁸²²-ابن الهيثم الحسن: كتاب المناظر، تحقيق عبد الحميد صبرة، دار الكويت، 1985، ص 368
نقلا عن جلطي بشير، الاتجاه التربوي عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير في علم النفس وعلوم التربية تحت إشراف الأستاذ جيلالي بو حمامة، جامعة وهران 1992، ص 195. وأنظر أيضا حول هذا الموضوع: Schuon Frithjof., Ibidem: سورة آل عمران الآية رقم 190.

³⁰ - كاريل ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق اسعد فريد، مكتبة المعارف، الطبعة الثالثة، 1980 (ط 1، 1974)، بيروت، ص 155-156. للاستزادة حول الموضوع راجع ص ص 150-164.

نتقرب به إلى الله زلفى لابد وأن يكون جميلا (إن الله جميل يحب الجمال)، فالجمال عملية نسل جديدة يمنح الحياة "حياة جديدة" باستمرار. فهو في الواقع ذلك الإطار الذي تتكون فيه أي حضارة، لذا ينبغي أن نلاحظ ونراعيه في أنفسنا وبيئتنا، أي في طريقة كلامنا وروائحنا وطريقة لباسنا،(*) في طريقة تدبير بيوتنا ومقاهينا، وأزقتنا و أماكننا العمومية. كما علينا أن نراعيه في وسائل إعلامنا من حيث أخلاقيات المهنة، وفي مدارسنا وجامعاتنا من حيث رسالتها الأخلاقية والمعرفية السامية. باختصار، علينا أن نلاحظه في عالم أفكارنا و في عالم أشخاصنا و في عالم أشياءنا. فلا ريب أن هذه المستويات الأربعة كما تصورها بن نبي في إدراك حقيقة الجمال الثقافية والحضارية، هي في الواقع إحدى مقومات الثقافة الفعالة (الحضارة) في أي مكان وفي أي زمان.⁽³¹⁾

3- المنطق العملي: ويقصد به بن نبي تلك الكيفية التي يرتبط بها العمل (بوحى من الأفكار) مع الوسائل والأهداف المنوطة بها في المكان و في الزمان. فلا ريب أن هذه الطريقة الإجرائية لابد وأن تستند على مقياس واقعي، مرن يخضع في حسابه أقصى حد ممكن من المعطيات المستخلصة من الوسط الاجتماعي واستغلالها استغلالا "براغماتيا" إن صح التعبير. إذن إن المنطق العملي ينطلق في إطار التبادل الخلاق بين الإنسان وبيئته من تلك الإرادة والانضباط العملي المشروط بالفعالية. إنه ذلك التنظيم العقلاني لمختلف الأشياء الواقعة تحت التصرف والذي ينعكس أثره التنظيمية (الفعالية) على مستوى العام والخاص. في الحقيقة، إن مثل هذا العقل التطبيقي الذي نجده يجتهد عمليا في إيجاد الصلة المثلى بين الفكر والعمل على مستوى التنظيم الاجتماعي العام والخاص، بعيدا عن كل عفوية وارتجال، ويؤكد بن نبي أن مثل هذا التفكير الإجرائي الذي يعطي للمشاكل المختلفة حجمها الحقيقي في المكان وفي الزمان يكاد ينعدم في العالم العربي و الإسلامي. إن نظرة فاحصة إلى طرق التنظيم "المؤسساتي" العام والخاص في هذه البلدان فيه ما يبرر ملاحظات مالك بن نبي. فلن نبالغ إذا قلنا، إنها فوضى حقيقية ظاهرة في كثير من المجالات الحيوية: في المنزل، في المدرسة، في الجامعة، في المكتب، في الإدارة، في المسجد، في المستشفى، في المصنع، في البنايات، في الطرقات وغيرها من المرافق العامة والخاصة. يقول بن نبي في هذا الصدد منتقدا: "...إننا

(* **لغة حضارية:** في هذا الموضوع ينقل لنا مالك بن نبي على سبيل المثال وفي اعتزاز كبير مشهدا جماليا واقعا عاشه مع زوجته أيام أن كان طالبا في فرنسا وقد كان هذا يتم عن مستوى ذوق زوجته خديجة وخبرتها (استعدادها الحضاري) في التعامل مع عالم الأشخاص وعالم الأشياء داخل البيت وخارجه لا يخل في نسبة العديد من المواقف الجمالية التي اكتسبها إلى هذه الزوجة المتحضرة... "كانت تبعد في بيتها وتفن إتقاناً من حيث النظافة والتجميل، كانت خديجة تتفن فن النسيج والزخرفة (Tapisserie et décoration) وكان ترتيب الأشياء ميزة لها على وجه الخصوص والدليل على هذا أنه طلب منها ذات يوم أن تفتح حقيبتها موظف الجمارك، فعندما فتحتها وشاهد الموظف دقة ترتيبها وجمالها، رأى من العيب أن ينقصها بتفتيشه على لا شيء فأمرها بغلقها على الفور إعجاباً منه بدقة التنظيم. إني أذكر هذه التفاصيل لأنني أعدها دالة على التطور النفسي الذي سيجعلني أشد الناس ونفورا لكل ما يسيئ لذوق الجمال، ولأنها تفسر ثورتي على بعض جوانب تخلفنا التي تصبح موضوع السخرية في بعض المجالات " ... أنظر بن نبي مالك، مذكرات شاهد القرن (الطفل، الطالب)، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر الجزائرية/دار الفكر السورية، الطبعة الثانية، الجزائر/دمشق، 1984، ص 273.

123 - للمزيد من التفاصيل حول أهم العناصر المكونة لمفهوم الجمال، أنظر: جلطي بشير، نفس المرجع السابق، ص ص 194-199.

نرى في حياتنا اليومية جانبا كبيرا من (اللافعالية) في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير في البحث و المحاولات الهائلة... والسبب الأصيل في هذه الوضعية المختلفة يكمن في غياب ضابط (الإطار التوجيهي التربوي الفعال) الذي يربط بين الأشياء ووسائلها و بين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا وفكرتنا لا تعرف التحقيق، وإن ذلك كله ليتكرر في كل عمل نعمله وفي كل خطوة نخطوها...ومن هنا يأتي عقمنا الاجتماعي، فنحن حالمون ينقصنا المنطق العملي، ولننظر إلى الأم التي تريد أن تربي ولدها، فهي إما أن تبده بمعاملة أم متوحشة، وإما أن ترخي له العنان وتتميع معه والنتيجة في هذا معروفة لدى المرين المختصين... " (32) وقد تصل الأمور في كثير من الأحيان إلى درجة التعقيد. فقد يتحول النشاط الفردي أو الجماعي المشروط بالشلل الفكري واللافعالية، في جانبه العام و الخاص على السواء إلى خلق حالة من "الفراغ الثقافي" أو بالأحرى "الموت الثقافي" حيث تنمية الصحة الجسدية النفسية والعقلية الروحية هي الاستثناء وليس القاعدة. هذه الوضعية الفكرية السلوكية سرعان ما تتحول بفعل تظافر عوامل داخلية (معامل القابلية للاستعمار) إلى "بديل إيديولوجي" (ذهنية متخلفة)، يحتقر أصحابه أولئك الذين يفكرون في مختلف أسباب القوة المادية والروحية على مستوى طرق تزكية الجسد والنفس كما وكيفا ويسعون في نفس الوقت إلى إحلال مثل هذا التفكير الإجرائي على مستوى الأفراد أو/و الجماعات، من أجل إعادة إنتاج معالم الحضارة الإسلامية في إطار اجتهاد مقاصدي أصيل وخلق في المكان وفي الزمان.

4- التوجيه الفني أو الصناعة (La technique): ويقصد

بالصناعة مختلف ميادين العلم وتطبيقاته التكنولوجية البسيطة و المعقدة. وبلغه ابن خلدون العزيزة على بن نبي، نقول أن الصناعة عالم من المهن و الحرف و الفنون و القدرات الإنسانية المنتجة سواء أكانت بسيطة في ظاهرها أم معقدة تحتاج إلى ملكة خاصة (منوطة بجودة التعليم). يقول ابن خلدون في هذا المعنى موضحا: "إعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري، وبكونه عمليا هو جسماني محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة، نقلها بالمباشرة أو عبء لها وأكمل: لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد مرة أخرى حتى ترسخ صورته...ونقل المعاينة أو عبء واتم من نقل الخبر و العلم...وعلى قدر جودة التعليم (وملكة المعلم يكون حذق) المتعلم في الصناعة وحصول ملكته." (33) ثم يتحدث عن أصناف الصنائع وكيفية اكتسابها فيقول: " ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب. والبسيط هو الذي يخص بالضروريات، والمركب هو الذي يكون للكليات...ولازال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل، بالاستنباط شيئا فشيئا على التدرج، حتى تكمل. ولا يحصل دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال... ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة، ولا يوجد منها إلا البسيط، فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع، حتى خرجت من القوة إلى الفعل. وتنقسم الصنائع أيضا: إلى ما يخص بأمر

224 - بن نبي مالك: مشكلة الثقافة، نفس المصدر السابق، ص 87-88. وللاستزادة حول أزمة المثقف في إنتاج أفكار أصيلة وخلقها كإشكالية منهجية وإيديولوجية، راجع المقاربة الفلسفية القيمة ل: حرب علي، أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء 1998، ص ص 153-177.

المعاش، ضروريا كان أم غير ضروري، وإلى ما يخص بالأفكار التي هي خاصة الإنسان، من العلوم و الصنائع والسياسة... " ³⁴ إذن هناك الصنائع المنوطة بأمر المعاش سواء أكان هذا الأخير ضروريا، تتوقف عليه حياة الإنسان في المكان وفي الزمان كالمأكل و المشرب و الملابس و المأوى، أم كان ضروري ونقصد به مختلف تلك الحاجيات المكتملة الأولى حسب تطور درجة العمران الحضري. كما أن هناك ما يخص بالأفكار التي هي خاصة إنسانية جوهرية كإكتساب العلوم و الصنائع وفنون السياسة و الجندية وغيرها ثم يسهب ابن خلدون في تحليل بعض الصناعات كفن البناء والتجارة والحياكة و الخياطة و الوراثة، و فن الخط و الكتابة والنسخ وتعليم العلم وبالإضافة إلى وصفه لهذه الصناعات توقف متأملا في بعض المهني الطبية كمهنة التوليد، و التطبيب، و الصيدلة وأمثالها، وهو في كل هذا يؤكد باستمرار ولو بإيجاز، على ضرورة قيام الصناعة على التعليم بشقيه النظري (التلقيني) والعملي (التدريب المهني) ⁽²⁵⁾. ويؤكد المفكر بن نبي في هذا الإطار الفني الحضاري أنه إذا كانت الصناعة (مهما كان نوعها) بالنسبة للفرد وسيلة لتحصيل القوت وأحيانا للحراك السوسيو-اقتصادي، فإنها بالنسبة للمجتمع وسيلة لإعادة إنتاج عالم أفكاره وأشخاصه وأشياءه، أي المحافظة على نموه المادي والمعنوي. وفي هذا الباب يرى بن نبي من الأولويات التربوية إنشاء مجلس يضم لجان في التوجيه مختصة في التوجيه الأخلاقي والجمالي والفني على مستوى حضاري، من أجل إيجاد حلول نظرية وعملية للمشاكل الخطيرة التي تطرحها التربية الرياضية والمهنية في علاقتهما مع الحاجات الوطنية كما وكيفاً. فالأبحاث العربية حول علاقة الرياضة بالانتاج والصناعة واكتساب القيم قليلة بل نادرة سواء فيما يتعلق بمدى تأثير الرياضة على الجوانب الاقتصادية أو وضعية الأنشطة والبرامج الرياضية في المؤسسات التعليمية أو العمالية أو القطاعات الاقتصادية. إن الحل الوحيد في المنظور البنائي منوط جوهريا بتكوين الفرد تكوينا حضاريا يجمع بين الأصالة والتجديد الخلاق (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة...) ⁽³⁵⁾ هكذا يتجلى لنا مما سبق ذكره، أن تعريف بن نبي للثقافة يتجاوز في الواقع الإطار (الأكاديمي) العام أو الخاص الذي إشتراط التعاريف الغربية أو

³²⁵- ابن خلدون عبد الرحمن ابن محمد: نفس المصدر المذكور سابقا، نفس الصفحة.
³⁴ - ابن خلدون (عبد الرحمن ابن محمد)، المقدمة، تحقيق درويش الجوهري، المكتبة العصرية، الطبعة الاثنتي، بيروت، 1996، ص 371

للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع:

ابن خلدون عبد الرحمن ابن محمد، نفس المصدر السابق، ص ص 371-405.

ملاحظة هامة: من بين ابرز المقاربات السوسيوولوجية النادرة في العالم العربي المعاصر حول علاقة الرياضة بالانتاج والصناعة واكتساب القيم مقارنة الباحثين أمين الخولاي ومصطفى عبد الباقي. فقد أفادت النتائج التي توصلنا إليها عام 1993 والتي أجريت على عمال بعض مصانع القاهرة الكبرى أن المؤسسات الثقافية العمالية كانت آخر ما يلجأ إليه العمال كمصدر للمعرفة المتعلقة بالترويج والأنشطة البدنية بغض النظر عن درجة تعليم العامل أو درجة مهارته حيث نال التلفزيون المركز الأول في ذلك !. للاستزادة حول هذا الموضوع راجع: الخولي، أمين أنور، الرياضة والمجتمع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1996، ص ص 121-188. ³⁵ - بن نبي مالك: شروط النهضة، نفس المصدر السابق، ص 97-105.

³⁶ - للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، راجع بن نبي مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة محمد عبد العظيم، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت، 1979. وللمزيد من التفاصيل حول مشكلة الزي والفنون الجميلة في العالم العربي والإسلامي راجع:

التعاريف الماركسية السابقة. فهو يعتبر أن الثقافة الجمالية في جوهرها سلوك فني اجتماعي. فقد أثبت في أكثر من كتاب على أن الثقافة بخلاف التعليم، هي نظرية في السلوك أكثر من كونها نظرية في المعرفة لأنه يعتبر أن أي إخفاق أو تراجع (إطرد عكسي) يتعذر معه تركيب العناصر الثقافية في منهج تربوي أصيل وخلق، يعني بديها وجود أزمة ثقافية تمر بها حضارة هذا المجتمع أو ذلك في مرحلة بعينها، لأن علاقة الحضارة بالثقافة في واقع الأمر تكمن في مهمتين أساسيتين تتعلقان بأسلوب الحياة سواء في جانبه الحيوي المادي والمعنوي وفي جانبه التربوي من خلال مشروعه الحضاري، أي في عملية نمو المجتمع وتحضره³⁶.

قائمة المراجع و المصادر المعتمدة:

- (1) بن نبي مالك، مشكلة الثقافة، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر/دار الفكر(بيروت/دمشق)، الطبعة الخامسة، 2000 .
- (2) ملاحظة منهجية: يذهب العديد من الفلاسفة البارزين والمعاصرين في الغرب من خلال تعقيهم الزمني للجنسانية (l'histoire de la sexualité) خاصة في عملية مراقبة نمو الجسد وتقنين مراحل على سبيل المثال لا الحصر أن نقطة التوازن هذه تجد دلالتها في مختلف الممارسات الندمية للمسيحية الوسيطية أو بالأحرى في تلك السلسلة المزدوجة المشكلة من الإعتراف الواجب، الشامل و الدوري المفروض على كل المؤمنين من قبل مجمع لانتران الديني (1215م)، ومن طرائق الرهبانية والتمارين الروحي والتصوف التي تطورت بشدة خاصة منذ القرن الرابع عشر الميلادي. ثم جاءت الاصلاحات البروتستنتية لتسجل تحولا بل طفرة مهمة سماها ميشال فوكو بـ "التكنولوجيا التقليدية للشعوة الجسدية" رغم بقاء مبدأ "الإعتراف" و "التوبة" بشرطان مسؤولية الفرد امام خالقه خاصة في القرنين السادس والسابع عشر. ثم تجمدت في القرن الثامن عشر الميلادي في صياغات معتدلة. أمما في نهاية القرن الثامن عشر ولحد اليوم نشأت تكنولوجيا للجنس جديدة كليا، جديدة، لأنها دون أن تكون مستقلة واقعا عن جوهر الخطيئة كانت تفلت من حيث الأساس فيها من السلطة الكنسية. فبواسطة التربية و الطب والاقتصاد كما يذهب فوكو كانت تجعل من الجنس لامسئلة دنيوية لائكية وحسب وإنما أيضا مسئلة تخص الدولة في علاقتها الجدلية مع الأفراد و الجماعات الاجتماعية المتميزة خاصة السيكولوجيين والأطباء والديمغرافيين. للإستزادة حول هذا الموضوع راجع على سبيل المثال المقاربة القيمة ل: ميشال فوكو، تاريخ الجنسية: إرادة العرفان، الجزء الأول ترجمة محمد هشام، دار إفريقيا الشرق، المغرب 2004،

- 3) Hall T. Edward, La dimension cachée, traduit de l' americain par Amelie petita, postface de francoise choay, ed., du seuil, Paris, 1971.

³⁶جع:

بن نبي مالك، شروط المهضة، سلسلة مشكلات الحضارة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1979، ص ص 122-128.
أنظر حول الإطار الحضاري للتربية الجنسية: الأبيض أحمد، من أجل حياة جنسية إنسانية وناجحة، دار المعراج، الطبعة الأولى، دمشق، 2010، ص ص 9-27 وأنظر أيضا بالنسبة للحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة المقاربة القيمة ل: SAINT MARC Phillippe, l'economie barbare, Eds. Frison-Roche, Paris, 1994, .PP 453-491

- (4) بن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، إصدار مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، 1979.
- (5) لوبون غوستاف، روح الاجتماع (Psychologie des foules)، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا (رسالة)، سلسلة العلوم الإنسانية: (الأنيس) تحت إشراف علي الكنز، دار موفم للنشر، الجزائر، 1988، 241 صفحة.
- 6) Gaid Tahar, Dictionnaire elementaire de l'Islam, ed. O.P.U, 1991, avoir article « Morale ».
- (7) سورة آل عمران: 103.
- 8) Petit Larousse illustre, 2ème ed. Revue et augmentee, Paris, 1984, voir (Saint vaincent de paul).
- (9) بولبي جون، رعاية الطفل وتطور الحب، ترجمة السيد خيرى، دار المعارف، القاهرة، 1968.
- 10) TOYNBEE, Arnold, L'histoire, Eds. Bordas, Paris, 1985.
- 11) ELIADE, Mircea, Mythes, rêves et mystères, Coll : Idées, Eds. Gallimard, Paris, 1957.
- (12) الأب لويس معلوف اليسوعي، المنجد (منجد الطلاب)، نظر فيه ووقف على ضبطه، العلامة فؤاد أفرام البستاني، دار المشرق ش م م، الطبعة السابعة والعشرون، بيروت- لبنان، 1983، (الطبعة الأولى عام 1941)، "جمل"
- (13) شلق على: الفن و الجمال، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1982.
- (14) قطب سيد: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة، بدون تاريخ.
- (15) قطب سيد، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، الطبعة الشرعية السابعة، بيروت- القاهرة، 1983.
- (16) الكيلاني نجيب، "المسرح الإسلامي"، بحث مقدم إلى ندوة الأدب الإسلامي المنعقدة في الرياض، 1404هـ/1405هـ، نقلا عن: الشامي صالح، الفن الإسلامي: إلتزام وابتداع، دار القلم، الطبعة الأولى، دمشق، 1990.
- (17) عبده مصطفى، أثر العقيدة في منهج الفن الإسلامي، دار الإشراف للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1990.
- 18) Schuon Frithjof, Sentiers de gnose, la colombe (editions du vieux colombier), Paris, 1957.
- 19) DUVIGNAUD, Jean, Sociologie de l'art, PUF, Paris 1967.
- 20) CUVILLIER, Armand, Cours de philosophie, Librairie Armand Colin, Tome 2, Paris, 1954.
- (21) فاروزان الراسخي، المرأة في العرفان الإسلامي والمسيحي (حتى القرن الثامن الهجري) دار الهادي، الطبعة الأولى، بيروت، 2004.
- 22) AROUA, Ahmed, l'islam et la morale des sexes, Eds. OPU, 2ème éd. Alger, 1992.
- 23) BOLOGNE, J.C., Histoire du mariage en occident, Eds. J.C. Lattès, Paris 1995.
- (24) بن الهيثم الحسن: كتاب المناظر، تحقيق عبد الحميد صبرة، دار الكويت، 1985.
- (25) جلطي بشير، الاتجاه التربوي عند مالك بن نبي، رسالة ماجستير في علم النفس وعلوم التربية تحت إشراف الأستاذ جيلالي بو حمامة، جامعة وهران 1992.
- (26) سورة آل عمران الآية رقم 190.
- (27) كاريل ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق اسعد فريد، مكتبة المعارف، الطبعة الثالثة، 1980 (ط 1، 1974)، بيروت.
- (28) (*) لفتة حضارية: في هذا الموضوع ينقل لنا مالك بن نبي على سبيل المثال وفي اعتزاز كبير مشهدا جماليا واقعيا عاشه مع زوجته أيام أن كان طالبا في فرنسا وقد كان هذا يتم عن مستوى ذوق زوجته خديجة وخبرتها (استعدادها الحضاري) في التعامل مع عالم الأشخاص وعالم الأشياء داخل البيت وخارجه لا يخجل في نسبة العديد من المواقف الجمالية التي اكتسبها إلى هذه الزوجة المتحضرة... "كانت تدع في بيتها

وتفن إتقاناً من حيث النظافة والتجميل، كانت خديجة تتقن فن النسيج والزخرفة (Tapisserie et décoration) وكان ترتيب الأشياء ميزة لها على وجه الخصوص والدليل على هذا أنه طلب منها ذات يوم أن تفتح حقيبتها موظف الجمارك، فعندما فتحتها وشاهد الموظف دقة ترتيبها وجمالها، رأى من العيب أن ينقضها بتفتيشه على لا شيء فأمرها بغلاقها على الفور إعجاباً منه بدقة التنظيم. إنني أذكر هذه التفاصيل لأنني أعدها دالة على التطور النفسي الذي سيجعلني أشد الناس ونفورا لكل ما يسيئ لذوق الجمال، ولأنها تفسر ثورتي على بعض جوانب تخلفنا التي تصيح موضوع السخرية في بعض المجالات " ... أنظر بن نبي مالك، مذكرات شاهد القرن (الطفل، الطالب)، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر الجزائرية/دار الفكر السورية، الطبعة الثانية، الجزائر/دمشق، 1984.

(29) حرب علي، أوهام النخبة أو نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء 1998.

(30) ابن خلدون (عبد الرحمن ابن محمد)، المقدمة، تحقيق درويش الجوهري، المكتبة العصرية، الطبعة الأثنتي، بيروت، 1996.

(31) ملاحظة هامة: من بين ابرز المقاربات السوسولوجية النادرة في العالم العربي المعاصر حول علاقة الرياضة بالانتاج والصناعة واكتساب القيم مقارنة الباحثين أمين الخولاي ومصطفى عبد الباقي. فقد أفادت النتائج التي توصلنا إليها عام 1993 والتي أجريت على عمال بعض مصانع القاهرة الكبرى أن المؤسسات الثقافية العمالية كانت آخر ما يلجأ إليه العمال كمصدر للمعرفة المتعلقة بالترويج والأنشطة البدنية بغض النظر عن درجة تعليم العامل أو درجة مهارته حيث نال التلفزيون المركز الأول في ذلك !. للاستزادة حول هذا الموضوع راجع: الخولي، أمين أنور، الرياضة والمجتمع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1996.

(32) بن نبي مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة محمد عبد العظيم، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت، 1979.

(33) الأبيض أحمد، من أجل حياة جنسية إنسانية وناجحة، دار المعراج، الطبعة الأولى، دمشق، 2010.

(34) SAINT MARC Phillippe, l'economie barbare, Eds. Frison-Roche, Paris, 1994.